الخطاب القرآني والمفسرون "قراءة في منهج التلقي وأدوات الإبلاغ "

أ. العيد علاّوي
المركز الجامعي الطارف

ملخص: القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر، ومعجزتها البيانية الخالدة، ومثلها الأعلى أنزله الله على أصحاب اللسان العربي، ففاقهم فصاحة وبلاغة، وبالمقابل أمدّهم بالعديد من المعارف الصوتية والصرفية والنحوية والبلاغية والتشريعية، مشكلا لهم بها حضارة باتت تنعت بحضارة النص.

- تأتي هذه الدراسة؛ لتعرض منهج الصحابة والمفسرين في تلقي القرآن مع تبيان الآليات التي اعتمدوها في فهمه وإفهامه، كاعتمادهم على لهجات العرب واستنادهم إلى الشعر باعتباره ديوان العرب، والملاذ الذي يرجع إليه لتفسير ما غرب أو ما استغلق فهمه، لتخلص إلى نتيجة مفادها أن لا سبيل لإدراك الخطاب القرآني إلا بامتلاك ناصية اللغة أو أخذ حظ منها على الأقل.

Résumé : Le Coran est le plus grand livre écrit en longue arabe. Il est considéré comme étant un éternel miracle rhétoriques est son modèle le plus suprême.

Dieu l'a révélé aux arabes mais il les a dépassés son forte rhétorique. A l'opposé, il leur a fourni plusieurs connaissances syntaxiques, rhétoriques et juridiques, constituant une civilisation qualifiée, de civilisation de texte.

Cette intervention mise à présenter la méthode des compagnons du prophète et les exégètes dans la réception du Coran tout en illustrant les mécanismes suivis en vue de le comprendre et l'interprété tels que : l'appui sue les anciens dialectes de l'arbie l'a

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

poésie considérée comme référence auquel il est fial recours à chaque fois qu'on fait face à une difficulté de compréhension.

Cela a débouché sur une conclusion qui stipule qu'il n'y a pas une autre voie qui permette la compréhension du texte coranique sans une bonne maîtrise de la longue.

تمهيد: لا مناص من القول إن القرآن الكريم ديدن هذه الأمة وعمودها الفقاري، وعصب حياتها، شرفها اللّه به واصطفاها من بين الأمم، فأنزله بلغتها، وجعل حياتها وحياة لغتها به، وتكفل بحفظه مقيضا له من يصنه ويرعاه.

فمُذْ أُنْزِل تغنّى الصحابة به، وتمتعوا بسماعه، وانتشى علماء العربية وأهل العلم والاجتهاد ببيانه وحسن نظمه، وكمال إعجازه وغاصوا بمختلف توجهاتهم من لغويين ومفسرين وبلاغيين وأصوليين... في لطيف لفظه، وشريف معناه، وعظيم أحكامه ؛ فنشأت الدراسات بمختلف أشكالها وكان ثمرةَ لقاحها القرآنُ.

فهناك من كتب في مجاز القرآن كأبي عبيدة معمر بن المثنى (210 هـ) وهناك من كتب في تأويل مشكله كابن قتيبة (ت 276هـ)، ومنهم من راح يتتبع معانيه كالفراء(ت 207هـ) والأخفش (215هـ) ... حتى ذهب السيوطي في كتابه "الإتقان" إلى أن هناك أكثر من ستين علما من علوم العربية نشأت في رحاب القرآن الكريم[1] للمحافظة عليه من اللحن من جانب، ومن جانب آخر لمحاولة فهمه والوقوف على أسرار معانيه[2]، ومن العلوم التي استخدمت كأدوات فهم لهذا الكتاب علوم العربية من: نحو وصرف وبلاغة[3]، وبهذا يمكننا القول إن القرآن مفجر علوم العربية[4].

العوامل الرئيسة لظهور علم التفسير: سبقت الإشارة إلى العلوم التي ظهرت بظهور القرآن الكريم، وجاءت خدمة له وقد انقسمت قسمين: فبعضها جاء لدراسة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كل ما يتصل بالقرآن ومن هذا النوع نذكر علم التفسير، والنوع الآخر: هي علوم بمثابة أدوات استخدمت كأدوات فهم للقرآن نحو: علوم العربية.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن اللغويين شاركوا المفسرين في تفسير القرآن فأغلب المفسرين كانوا لغويين. ويجب أن يفهم هنا أن التفسير غير التأويل فالتفسير في رأي الأصفهاني أعم والتأويل أخص، وقد اكتسب التأويل خصوصيته من جهتين:[5]

أ- أن التفسير بيان غريب الألفاظ، أما التأويل فبيان الجمل ومعانيها.

ب- أن التأويل أغلب استعماله في الكتب الإلهية، أما التفسير ففيها وفي غيرها.

علاوة على هذا فالتفسير يختص بالرواية، وهي لا تحتاج إلى إعمال فكر، أما التأويل فيختص بالدراية.

فالتفسير إذن هو البيان أو الكشف عن المعنى، وهو عملية مبسطة لا تتعدى ملامسة السطح الظاهري للنص لشرح معنى ما أو إعادة طرحه بصورة أخرى أكثر وضوحا، أما **التأويل**، فهو العدول عن ظاهر اللفظ إلى المعنى العميق، وهو غوص نحو العمق، للوصول إلى قلب النص واستخراج المعاني الخبيئة فيه[6]، ولعل من الأسباب التي أدت إلى ظهور التفسير بل وتعدد التفاسير ما يلي:[7]

- ❖ محورية النص القرآني في الحضارة الإسلامية.
- ❖ طبيعة النص القرآني نفسه؛ إذ يوجد في القرآن من الآيات محكم ومتشابه، وذلك لما جاء في قوله تعالى:{هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ}[آل عمران:07]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

❖ طبيعة العقل البشري ؛إذ تختلف من شخص لآخر لاختلاف المرجعيات الثقافية والحضارية التي تؤثر على طريقة فهم النص وتناوله- كما تختلف باختلاف الأدوات التي يستخدمها كل مفسر في مواجهته للنص ...

❖ تعدد الفرق السياسية والمذاهب الدينية، بحيث سعت كل فرقة إلى إيجاد ما يدعم أفكارها ومذهبها من النص القرآني عن طريق التماس تلك المعاني في آيات القرآن الكريم حتى تعضد به موقفها السياسي والديني على حد سواء.

منهج الصحابة والمفسرين في تلقي القرآن الكريم: كان الصحابة رضوان الله عليهم يرجعون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أشكل عليهم لفظ أو استغلق عليهم معنى، وبقى الأمر كذلك بعد وفاته، إذ كان يُرْجَع إلى كبار الصحابة ومنهم حبر هذه الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما الذي نُعِت ببحر التفسير وكيف لا يكون كذلك وقد دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"، وقد قال فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه "كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق"[8]، وقد اعتمد ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره اللغوي على أساسين اثنين هما:[9]

❖ اعتماده على كلام العرب (لهجاتهم ولغاتهم المختلفة).

❖ اعتماده على الشعر.

فمن اعتماده على كلام العرب قوله: "كنت لا أدري ما"**فاطر**"في قوله تعالى:{الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [فاطر:01] حتى أتاني أعرابيان يختصمان حول بئر فقال أحدهما : أنا **فاطرها**؛ أي بدأت حفرها.

ومن اعتماده على لهجات العرب نذكر قوله: كنت لا أدري معنى "**التخوف**" في قوله تعالى: { أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}[النحل:47] حتى جاءني فتى هذلي يشكو بهذا البيت:

تخوفني مالي أخ لي ظالم فلا تخذلني اليوم يا خير من بقى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تخوفني بمعنى **تنقصني**؛ أي تنقص من خيارهم.[10]

ولعل هذا البيت يدخل كذلك ضمن الأساس الثاني الذي اعتمده ابن عباس والمتمثل في اعتماده على الشعر.

فعلى رأس اعتماده على الشعر نذكر المناظرة الشهيرة التي حدثت بينه وبين نافع بن الأزرق، وفي هذا الشأن يقول السيوطي:[11] ((بينما عبد اللّه بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب اللّه فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن اللّه إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس سلاني عما بدا لكما:

فقال نافع: أخبرني عن قول اللّه تعالى: { عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ} [المعارج:37] قال **العزون**: حلق الرفاق. قال: أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره **عزينا**

- قال نافع وما معنى **الوسيلة** في قوله تعالى:{ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ}[المائدة: 35] ؟.

- قال ابن عباس **الوسيلة** هي **الحاجة**، أما سمعت عنتر وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك **وسيلة** أن يأخذوك تكحلي وتخضبي

- قال نافع وما معنى "**منهاجا**" في قول اللّه تعالى:{ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً}[المائدة: 48] ؟.

- قال ابن عباس **المنهاج** هو **الطريق**، أما سمعت الشاعر وهو يقول:

لقد نطق المأمون بالصدق والهدى وبيّن للإسلام دينا و**منهجا**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- قال نافع: وما معنى "ينعه" في قوله تعالى: { انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ}[الأنعام: 99] ؟

- قال بن عباس **ينعه**، **نضجه وبلاغه**، أما سمعت الشاعر وهو يقول:

إذا ما مشت وسط النساء تأودت كما اهتز غصن ناعم النبت **يانع**

- قال نافع: وما الريش في قوله تعالى:{ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ}[الأعراف:26]؟، قال ابن عباس، **الريش** هو **المال**، أما سمعت قول الشاعر:

- **فرشني** بخير طالما قد بريتني وخير الموالي من يريش ولا يبري

- قال نافع: وما معنى كبد في قوله تعالى:{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}[البلد:04]؟

- قال ابن عباس: في **كبد** في **اعتدال واستقامة**، والشاعر يقول:

يا عين هلا بكيت أربد إذ قمنا وقام الخصوم في **كبد**

قال نافع وما "السنا" في قوله تعالى: {يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ}[النور:43]؟قال ابن عباس: **السنا** هو **الضوء** و الشاعر يقول:

يدعو إلى الحق لا يبغي به بدلا يجلو **بضوء سناه** داجي الظلم

وهكذا استمرت بقية المسائل على هذا النحو، وهي توضح منهج ابن عباس في تفسير تلك الألفاظ التي سأله عنها نافع بن الأزرق مع بيان استعمالها في الشعر العربي، كما استشهد ابن عباس في تفسير كلمة "**ضيزى**" في قوله تعالى:{ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى}[النجم:22]، بمعنى جائرة محتجا بقول امرئ القيس:

ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يعدلون الرأس بالذنب[12]

ولعل ما يؤكد اعتماد ابن عباس على الشعر قوله: ((إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإنه ديوان العرب)) [13]

كما اعتمد أبو عبيدة في كتابه "مجاز القرآن" على الشعر، وهو أول من مهد التأليف في علوم البلاغة، وما يؤكد اعتماده على الشعر ما ذكره ياقوت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحموي في معجم الأدباء قائلا ((قال أبو عبيدة أرسل إلي الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه سنة ثمان وثمانين ومئة، فقدمت إلى بغداد واستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت عليه... ثم دخل رجل في زي الكتاب، له هيئة فأجلسه إلى جانبي وقال له أتعرف هذا؟ قال: لا قال هذا أبو عبيدة علامة البصرة... وقال لي إني كنت إليك مشتاقا، وقد سئلت عن مسألة، أفتأذن لي أن أعرفك إياها؟ فقلت: هات، قال: قال الله عز وجل:{ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ} [الصافات:65]، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف، فقلت: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرئ القيس:

- أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق **كأنياب أغوال**

وهم لم يروا الغول قط ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السائل وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابا في مثل هذا و أشباهه.[14]

ومن قبيل هذا اعتماد أبي عبيدة على الشعر في تفسير قوله تعالى:{كأن لم يغنوا فيها }[الأعراف:92]، **يغنوا** بمعنى **الإقامة** مستشهدا بقول المهلهل:

غنيت دارنا تهامة في الدهـ ـر وفيها بنو معد حلولا[15]

وبالمعنى نفسه قال الطبري في تفسير قوله تعالى:{ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[يونس:24]، مستشهدا بقول النابغة الذبياني:

غنيت بذلك إذ هم لي جيرة منها بعطف رسالة وتودد[16]

أما في العصر الحديث فنستشهد بتجربة الشيخ محمد متولي الشعراوي الذي اعتمد هو الآخر على الشعر في تفسيره للقرآن الكريم ومن هذا نذكر تعليقه الرائع والبديع على قوله تعالى:{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[النور: 35].

وفي تفسيره لهذه الآية قال: كأن الله سبحانه وتعالى: يريدنا أن نعرف بتشبيه محس... أن مثل نوره كمشكاة، والمشكاة هي (الطاقة)، وهي فجوة في الحائط بالبيت الريفي ... ونحن نضع المصباح في هذه الطاقة ... إذن المصباح ليس في الحجرة كلها، ولكن نوره مركز هذه الطاقة، فيكون قويا في هذا الحيز الضيق- لكن المصباح في زجاجة .. تحفظه من الهواء من كل جانب، فيكون الضوء أقوى.. صافيا لا دخان فيه.. كما أن الزجاج يعكس الأشعة، فيزيد تركيزه ...(...) وهذا ليس نور الله تبارك وتعالى عن التشبيه والوصف، ولكنه مثل فقط للتقريب إلى الأذهان ... فكأن نور الله يضئ كل ركن وكل بقعة ... ولا يترك مكانا مظلما ... فهو نور على نور...

ولقد أراد أحد الشعراء أن يمدح الخليفة، وكانت العادة أن يشبه الخليفة بالأشخاص البارزين ذوي الصفات الحسنة فقال:

إقدام عمرو في سماحة حاتم   في حلم أحنف في ذكاء إياس

وكل هؤلاء الذين ضرب بهم الشاعر المثل كانوا مشهورين بهذه الصفات، فعمرو كان مشهورا بالإقدام والشجاعة... وحاتم كان مشهورا بالسماحة ... وأحنف يضرب به المثل في الحلم... وإياس شعلة في الذكاء ... وهنا قام أحد الحاضرين وقال: الأمير أكبر في كل شيء ممن شبهته بهم، فقال أبو تمام على الفور:

لا تنكروا ضربي له من دونه   مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلا من المشكاة والنبراس[17]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالله تبارك وتعالى- هو نور السموات والأرض أي: منورهما وهذا أمر واضح جدا حينما تنظر إلى نور الشمس ساعة يظهر يجلو الكون بحيث لا يظهر معه نور آخر وتتلاشى أنوار الكواكب الأخرى والنجوم رغم وجودها مع الشمس في وقت واحد، لكن يغلب على نورها نور الشمس، على حد قول الشاعر في المدح.[18]

كأنك شمس والملوك كواكب   إذا ظهرت لم يبد منهن كوكب

ومن مثل هذا الاعتماد نذكر اعتماده على الشعر في التفريق بين التمني والرجاء، وذلك في تفسير قوله تعالى:{ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيرا}[النساء:123]. هذا بالنسبة للجمع أما لمفرد "التمنى" قوله تعالى:{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ}[الحج : 52]

فالأمنية هي الشيء الذي يحب الإنسان أن يحدث ولكن حدوثه مستحيل ... إذن لن يحدث ولن يكون له وجود، ولذلك قالوا إن من معاني التمني اختلاق الأشياء... وبعد هذا التحليل استشهد (الشعراوي بأقوال الشعراء الآتية) [19]

ألا ليتَ الشَّبابَ يعودُ يوماً   فأخْبِرَهُ بما فَعَلَ المَشِيبُ

فمن المستحيلات أن يعود الشباب، ثم احتج بقول الشاعر القائل:

ليتَ الكَواكِبَ تَدْنُو لي فَأنظمها   عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضى لكم كلم

فمحال أن تنزل النجوم من السماء إلى هذا الشاعر فينظمها أبيات شعر إلى حبيبته، إذن من معاني التمني الكذب والاختلاق.

وفي مقام آخر يقول مفرقا بين التمني والرجاء، فالأماني أن تعلق نفسك بأمنية وليس لهذه الأمنية سند من الواقع يوصلك إلى تحقيق هذه الأمنية... ولكن إذا كان التمني قائما على عمل يوصلك إلى تحقيق الأمنية فهذا شيء آخر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فبعض الناس يقول التمني وإن لم يتحقق يروح على النفس .. فقد ترتاح النفس عندما تتعلق بأمل كاذب وتعيش في نوع من السعادة وإن كانت سعادة وهمية، فالصدمة التي ستلحق بالإنسان ستدمره... ولذلك لا يكون في الكذب أبدا راحة ... فأحلام اليقظة لا تتحقق، لأنها تقوم على أرضية من الواقع وهي لا تعطي الإنسان إلا نوعا من بعد عن الحقيقة ولذلك يقول الشاعر:

مُنًى إنْ تكُنْ حقاً تكُنْ أحْسَنَ المُنَى   وإلا فَقَدْ عِشْنَا بها زَمَناً رَغْدَا

يعني لو كانت حقيقة أو تستند إلى الحقيقة، فإنها أحسن الأماني، لأنها تعيش معك[20].

ومن خلال هذه النماذج التي سقناها يتجلى النهج الذي سلكه الشعراوي في إبلاغ معاني القرآن الكريم ومقاصده، وهو نهج يشاكل نهج الصحابة الأخيار ونهج المفسرين الأفذاذ الذين اعتمدوا على الشعر وانطلقوا من اللغة في فهم القرآن وتذليل سبيله للعامة والناشئة.

المنهج الأقوم لتلقي الأجيال المعاصرة للقرآن الكريم: إن ما تعانيه أجيالنا من مشاكل سببه الرئيس هو الابتعاد عن كتاب الله، فلما ابتعدنا عن هذا الكتاب (الدستور)- الذي لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها - حلت بنا محن وإحن، ومن بين هذه المحن عدم فهم الأجيال لمعاني هذه الرسالة الخالدة وعليه نرى أن المنهج السليم لتلقي القرآن وفهمه وإفهامه يكون بالآليات الآتية:

1) الاطلاع على لهجات العرب المختلفة (كما اعتمد عليها الصحابة الكرام رضي الله عنهم وقد بينا ذلك سلفا)

2) الاطلاع على روائع الشعر العربي وحفظها وقد أشرنا سلفا إلى اعتماد بعض الصحابة والمفسرين على الأساس.

3) تعلم اللغة العربية والتبحر فيها أو أخذ حظ منها على الأقل- فاللغة العربية شرط ضروري لسائر العلوم الإسلامية، فقد أجمع العلماء على أنه لا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مناص لطالب العلوم الإسلامية من تعلم اللغة العربية، فمن دونها لا يستطيع الطالب أن يتذوق، بل لا يستطيع الولوج إلى أي علم شرعي كان، إلا إذا كان متمكنا في علم العربية- ولقد عرف الإلمام بالعربية حضورا بارزا في سائر العلوم الإسلامية، فأصبحت مسألة التضلع فيها والوقوف على أسرارها أمرا مسلما عند المسلمين. [21] ذلك أنهم لا يجدون علما من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بيّن لا يدفع ومكشوف لا يتقنع[22]، وقد جعل الصاحبي العلم بالعربية واجبا على طالب العلوم الإسلامية قائلا: "إن علم اللغة كالواجب على أهل العلم لئلا يحيدوا في تآليفهم أو فتياهم عن سنن الاستواء"[(23)] فهو بهذا يجزم أن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة، أما ابن جني فيرى أن ضلال من ضل من علماء الشريعة مرده إلى قصر الباع في العربية بقوله: "وذلك أن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المثلى إليها، فإنما استهواه واستخف حلمه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة."[(24)]

وقريب من كل ما تقدم إشارة ابن خلدون إلى أن علوم اللسان ضرورية لمعرفة علوم القرآن، فقد ذكر في الفصل السادس والأربعين من مقدمته إلى هذه العلوم اللسانية بقوله (فصل في علوم اللسان العربي وأركانه الأربعة: اللغة والنحو، والبيان والأدب، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة. [25]

ومن بين العلوم الإسلامية التي لا غنى لها عن علم العربية علم القراءات القرآنية، وقد ذهب أحد العلماء إلى أن هناك سبعة علوم هي وسائل لعلم القراءات وهي كالآتي: [26]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

علم العربية من نحو وصرف...

علم التجويد معرفة مخارج الحروف وصفائها.

علم رسم المصحف.

علم الوقف والابتداء

معرفة علم الفواصل وهو في عدد الآيات

معرفة علم الأسانيد وهو الطرق الموصلة إلى القرآن.

علم الابتداء والحكم، وهو الاستعاذة والتكبير ومتعلقاتهما-

والظاهر من خلال تعداد هذه العلوم السبعة أنه جعل علم العربية من نحو وصرف في مقدمتها، وهذا ما يعبر عن أهمية هذا الركن الذي أعظمه الصفاقسي في كتابه غيث النفع قائلا "ولا يجوز لأحد أن يتصدر الإقراء حتى يتقن عقائده ويتعلمه على أكمل وجه، ويتعلم من الفقه ما يصلح به أمر دينه وما يحتاج إليه من معاملات، وأهم شيء عليه بعد ذلك أن يتعلم من النحو والصرف حملة كافية يستعين بها على توجيه القراءات ويتعلم من التفسير الغريب ما يستعين به على فهم القرآن وأن لا يكتفي بالاستماع إلى لفظ القرآن دون الغوص في معانيه"[27]

وفي هذا الشأن يقول الإمام الحصري: [28]

لقَدْ يدَّعِى عِلْمُ القِرَاءاتِ مَعْشَرُ وباعُهُم في النَّحْو أقْصَرُ مِن شِبْرِ

فَإنْ قِيْلَ ما إعرابُ هذا ووجْهُهُ رأيتَ طويلَ الباعِ يقصُرُ عنْ فِتْرِ

فمن خلال هذين البيتين تتجلى حاجة القارئ إلى معرفة النحو والصرف، كما صار جليا أن العلماء قاطبة جزموا على أن العربية شرط ضروري لطالب العلوم الإسلامية، وهذا لأن اللغة هي أداة الفهم والإفهام والبيان والتبيين والتفكير.

4) تعلم القراءات القرآنية، فقد ذهب الدارسون والمحققون إلى أن للقراءات قيمة دينية وإلى جانب هذه القيمة لها قيمة لغوية خاصة، لأنها تحوي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثورة لغوية ضخمة لا يستغني عنها دارس اللغة العربية، ولكونها تسجل الكثير من الظواهر اللهجية مما أهملته كتب اللغة والنحو[29].

ومعنى هذا أن القراءات من المصادر اللغوية المهمة وشواهدها من الشواهد اللغوية التي يجب الاعتماد عليها حين النظر في القضايا الصوتية والتركيبية والدلالية لأنها تعبير عن الواقع اللغوي الذي كان سائدا في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، وتمثل اللهجات التي كانت منتشرة بين القبائل العربية، كما تعد سجلا دقيقا لما في كلام العرب من التصرفات اللغوية على وجه العموم30.

خاتمة:

من خلال ما تقدم تجلت العلاقة الوطيدة بين القرآن الكريم واللغة العربية، كيف لا والقرآن معجزة لغوية شرف الله العرب بأن أنزلها بلغتهم ولفهم هذه الرسالة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان، الرسالة الموجهة للثقلين الجن والإنس، فلا بد من الرجوع للغة العربية وتعلمها، وإذا ما أريد للعربية أن تبقى مزدهرة فلا بد من التمسك بهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتعهد الله بحفظه فقال:{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[الحجر:9]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش والإحالات:

1و2- ينظر محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، د.ط، 2001، ص37.

3و4، المرجع نفسه، ص40.

5- فاطمة البريكي، قضية التلقي في النقد العربي القديم، العالم العربي للنشر والتوزيع ط1 2006، ص144.

6- المرجع نفسه، ص 144.

7- المرجع نفسه، ص111.

8- محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطية، ط1، 2000 ص66.

9- المرجع نفسه، ص 65.

10- المرجع نفسه، ص66.

11- المرجع نفسه، ص 67-68.

12- محمد محمد داود، المرجع السابق، ص244.

13- محمود سليمان ياقوت، المرجع السابق، ص 69.

14- أحمد فرج الربيعي، منهج معجمات المعاني إلى نهاية القرن السادس الهجري، مركز الإسكندرية للكتاب، د.ط، 2001، ص15.

15- محمد محمد داود، المرجع السابق، ص244.

16- المرجع نفسه، ص 244.

17- محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، د ت، د، ط، مج1 ص 168.

18- المصدر نفسه، مج17، ص 74-102.

19- المصدر نفسه، مج1، ص 423-424.

20- المصدر نفسه، مج1، ص545.

21- عبد الحميد العلمي، منهج الدرس الدلالي عند الإمام الشاطبي، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د ط، 2001، ص 95-96.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

22- الزمخشري، المفصل في علم العربية، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت، ص03.
23- ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، مكتبة المعارف بيروت، ط1، 1993، ص 65.
24- أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية د.ط د.ت، ج3، ص245.
25- عبد العال سالم مكرم، اللغة العربية في رحاب القرآن الكريم، عالم الكتب، ط1 1995 ص16.
26- أحمد محمود عبد السميع الشافعي الحفيان، الإجابات الواضحات لسؤالات القراءات العشر المتواترة أصولا وفرشا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2002، ص61-62.
27- الصفاقسي، غيث النفع في القراءات السبع، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1999، ص08.
28- النويري، شرح طيبة النشر في القراءات العشر، تقديم وتحقيق، مجدى سرور وسعد باسلون منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان ط 2003، ص56.
29- عبد العال سالم مكرم، وأحمد مختار عمر، معجم القراءات القرآنية مع مقدمة في القراءات وأشهر القراء مطبوعات جامعة الكويت، المقدمة، ص (ز).
30- الطاهر مشري، الشيخ السلطاني حياته استشهاده بالقرآن والقراءات في شرحه للشواهد مجلة الحقيقة، جامعة أدرار، العدد: 01 أكتوبر 2002، ص343.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com